بسم الله الرحمن الرحيم

«الْمُؤْمِنُ الْقَوِيُّ خَيْرٌ وَأَحَبُّ إِلَىٰ اللهِ مِنَ الْمُؤْمِنِ الضَّعِيفِ» ١٩ صَفَرٍ ١٤٤٦هـ

عِبَادَ اللهِ: أَخْرَجَ مُسْلِمٌ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «الْمُؤْمِنُ الْقَوِيُّ خَيْرٌ وَأَحَبُّ إِلَىٰ اللهِ مِنَ الْمُؤْمِنِ الضَّعِيفِ». إِنَّ صِدْقَ الْعَقِيدَةِ وَصِحَّتَهَا تُضْفِي عَلَىٰ صَاحِبِهَا قُوَّةً، تَظْهَرُ فِي أَعْمَالِهِ كُلِّهَا، فَإِذَا تَكَلَّمَ كَانَ وَاثِقًا، وَإِذَا عَمِلَ كَانَ ثَابِتًا، وَإِذَا جَادَلَ كَانَ وَاضِحًا، وَإِذَا فَكَّرَ كَانَ مُطْمَئِنًّا، لَا يَعْرِفُ التَّرَدُّدَ وَلَا تُمِيلُهُ الرِّيَاحُ، يَأْخُذُ تَعَالِيمَ دِينِهِ بِقُوَّةٍ لَا وَهَنَ مَعَهَا، ﴿خُذُواْ مَا ءاتَيْنَـاكُم بِقُوَّةٍ﴾، ﴿يَا يَحْيَىٰ خُذِ الْكِتَـابَ بِقُوَّةٍ﴾، ﴿فَخُذْهَا بِقُوَّةٍ وَأْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُواْ بِأَحْسَنِهَا﴾. إِنَّهُ أَخْذٌ بِعَزِيمَةٍ لَا رَخَاوَةَ مَعَهَا، وَلَا قَبُولَ لِأَنْصَافِ الْحُلُولِ، وَلَا ضَعْفَ وَلَا هُزَالَ. هَذَا هُوَ عَهْدُ اللهِ مَعَ أَنْبِيَائِهِ وَالْمُؤْمِنِينَ، جَدٌّ وَحَقٌّ، وَصَرَاحَةٌ وَصَرَامَةٌ. هَذَا جَانِبٌ مِنَ الْقُوَّةِ فِي أَهْلِ الْإِيمَانِ، وَجَانِبٌ آخَرُ يَتَمَثَّلُ فِي ثَبَاتِ الْخُطَىٰ؛ حِينَ يَكُونُ الْمُؤْمِنُ مُسْتَنِيرَ الدَّرْبِ، يُعَاشِرُ النَّاسَ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ مِنْ أَمْرِهِ، إِذَا رَآهُمْ عَلَىٰ الْحَقِّ أَعَانَهُمْ، وَإِنْ رَآهُمْ عَلَىٰ الْخَطَأِ جَانَبَهُمْ، وَنَأَىٰ بِنَفْسِهِ عَنْ مُسَايَرَتِهِمْ. إِنَّهَا الْقُوَّةُ فِي ضَبْطِ النَّفْسِ وَالتَّحَكُّمِ فِي الْإِرَادَةِ الَّتِي تَنْشَأُ مِنْ كَمَالِ السَّجَايَا، وَحَمِيدِ الْخِصَالِ، كَإِبَاءِ الضَّيْمِ، وَعِزَّةِ النَّفْسِ، وَالتَّعَفُّفِ، وَعُلُوِّ الْهِمَّةِ، وَإِنَّكَ لَتَرَىٰ فَقِيرًا قَلِيلَ ذَاتِ الْيَدِ، وَلَكِنَّهُ ذُو إِرَادَةٍ قَوِيَّةٍ، وَنَفْسٍ عَازِمَةٍ، شَرِيفُ الطَّبْعِ، نَزِيهُ الْمَسْلَكِ، بَعِيدٌ عَنِ الطَّمَعِ وَالتَّذَلُّلِ.

إِنَّ الْقُوَّةَ فِي ضَبْطِ النَّفْسِ آخِذَةٌ بِصَاحِبِهَا بِالسَّيْرِ فِي مَسَالِكِ الطُّهْرِ، وَدُرُوبِ النَّزَاهَةِ، وَالِاسْتِقَامَةِ عَلَىٰ الْجَادَّةِ، أَمَّا الرَّجُلُ الْخَرِبُ الذِّمَّةِ، السَّاقِطُ الْمُرُوءَةِ، فَلَا قُوَّةَ لَهُ، وَلَوْ لَبِسَ جُلُودَ السِّبَاعِ، وَمَشَىٰ فِي رِكَابِ الْأَقْوِيَاءِ، وَقَدْ قَالَ هُودٌ عَلَيْهِ السَّلَامُ لِقَوْمِهِ، آمِرًا لَهُمْ بِالِاسْتِغْفَارِ، وَالْبُعْدِ عَنْ مَزَالِقِ الْخَاطِئِينَ: ﴿وَيَاقَوْمِ اسْتَغْفِرُواْ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُواْ إِلَيْهِ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَىٰ قُوَّتِكُمْ وَلَا تَتَوَلَّوْا مُجْرِمِينَ﴾.

أَيُّهَا الْمُسْلِمُونَ: إِنَّ مِنْ أَعْظَمِ الْمَصَائِبِ الْهَدَّامَةِ: الْعَجْزَ، وَالْكَسَلَ، وَالْجُبْنَ، وَالْبُخْلَ.

إِنَّهَا صُوَرٌ مِنْ صُوَرِ الضَّعْفِ وَالْخَوَرِ، وَقَدِ اسْتَعَاذَ مِنْهَا جَمِيعِهَا نَبِيُّكُمْ مُحَمَّدٌ ﷺ فِي دُعَائِهِ، أَخْرَجَ الشَّيْخَانِ عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: كَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ يَقُولُ: «اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنَ الْعَجْزِ، وَالْكَسَلِ، وَالْجُبْنِ، وَالْهَرَمِ، وَالْبُخْلِ، وَأَعُوذُ بِكَ مِنْ عَذَابِ الْقَبْرِ، وَمِنْ فِتْنَةِ الْمَحْيَا وَالْمَمَاتِ».

إِنَّ اسْتِعَادَةَ الْأَحْزَانِ، وَالتَّحَسُّرَ عَلَىٰ مَا فَاتَ، وَالتَّعَلُّقَ بِالْمَاضِي، وَتَكْرَارَ التَّمَنِّي بِـ(لَيْتَ)، وَالتَّحَسُّرَ فِي الزَّفَرَاتِ بِـ(لَوْ)، فَلَيْسَ مِنْ خُلُقِ الْمُؤْمِنِ الْقَوِيِّ؛ فَإِنَّ (لَوْ) تَفْتَحُ عَمَلَ الشَّيْطَانِ، وَمَا عَمَلُهُ إِلَّا الْهَوَاجِسُ، وَالْوَسَاوِسُ، فَهُوَ الْوَسْوَاسُ الْخَنَّاسُ، فَلَا الْتِفَاتَ إِلَىٰ الْمَاضِي إِلَّا بِقَدْرِ مَا يَنْفَعُ الْحَاضِرَ، وَيُفِيدُ الْمُسْتَقْبَلَ.

فَاتَّقُوا اللهَ عِبَادَ اللهِ، وَاسْتَمْسِكُوا بِعُرَىٰ دِينِكُمْ، وَخُذُوا أَمْرَكُمْ بِقُوَّةٍ، وَسِيرُوا فِي دَرْبِ الْحَقِّ بِعَزِيمَةٍ، مُتَوَكِّلِينَ عَلَىٰ رَبِّكُمْ، مُعْتَصِمِينَ بِحَبْلِهِ؛ تَكُونُوا مِنَ الرَّاشِدِينَ.

عِبَادَ اللهِ: إِنَّ الْمُؤْمِنَ تَتَوَالَىٰ عَلَيْهِ الظُّرُوفُ الْمُحْرِجَةُ، وَتَنْعَقِدُ الْأَجْوَاءُ الْمُدْلَهِمَّةُ، وَيَلْتَفِتُ الْمَرْءُ يَمْنَةً وَيَسْرَةً فَلَا يَرَىٰ عَوْنًا وَلَا أَمَلًا وَلَا مَلْجَأً وَلَا مَلَاذًا إِلَّا إِلَىٰ اللهِ وَبِاللهِ وَعَلَىٰ اللهِ. ذَلِكُمْ هُوَ مَسْلَكُ النَّبِيِّينَ وَالْمُرْسَلِينَ وَالصَّالِحِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ: ﴿وَمَا لَنَا أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَىٰ اللهِ وَقَدْ هَدَانَا سُبُلَنَا وَلَنَصْبِرَنَّ عَلَىٰ مَا آذَيْتُمُونَا وَعَلَىٰ اللهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ﴾.

أَيُّهَا الْمُسْلِمُونَ: فِي مَسِيرَةِ الْعَبْدِ إِلَىٰ رَبِّهِ فِتَنٌ خَطَّافَةٌ، وَابْتِلَاءَاتٌ جَذَّابَةٌ، وَالِابْتِلَاءُ مِنْ سُنَنِ اللهِ ﷻ؛ لِيَتَبَيَّنَ الَّذِينَ صَدَقُوا، وَيَتَبَيَّنَ الْكَاذِبُونَ، وَعِنْدَ الِابْتِلَاءَاتِ رُبَّمَا تَقَعُ الِانْتِكَاسَاتُ.

إِنَّ تَقَلُّبَ الْقُلُوبِ وَتَحَوُّلَهَا مِنْ أَعْظَمِ دَلَائِلِ سُلْطَانِ اللهِ عَلَىٰ الْقُلُوبِ، فَمَنْ تَثَاقَلَ عَنْ الِاسْتِجَابَةِ، وَتَبَاطَأَ عَنِ الْقَبُولِ فَلَا يَأْمَنُ أَنْ يَحُولَ اللهُ بَيْنَهُ وَبَيْنَ قَلْبِهِ، أَخْرَجَ مُسْلِمٌ عَنْ عَبْدَ اللهِ بْنَ عَمْرِو بْنِ الْعَاصِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، أَنَّهُ سَمِعَ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ: «إِنَّ قُلُوبَ بَنِي آدَمَ كُلَّهَا بَيْنَ إِصْبَعَيْنِ مِنْ أَصَابِعِ الرَّحْمَنِ، كَقَلْبٍ وَاحِدٍ، يُصَرِّفُهُ حَيْثُ يَشَاءُ» ثُمَّ قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «اللَّهُمَّ مُصَرِّفَ الْقُلُوبِ صَرِّفْ قُلُوبَنَا عَلَىٰ طَاعَتِكَ».

إِنَّ الثَّبَاتَ عَلَىٰ الدِّينِ مَطْلَبٌ عَزِيزٌ، وَلُزُومَ الْجَادَّةِ مَقْصِدٌ ثَقِيلٌ، يَحْتَاجُهُ الْمُسْلِمُ فِي حَيَاتِهِ كُلِّهَا، ثَبَاتٌ أَمَامَ الشُّبُهَاتِ، وَثَبَاتٌ أَمَامَ الشَّهَوَاتِ، وَثَبَاتٌ أَمَامَ الْفِتَنِ.

إِنَّ الْخَوْفَ مِنَ الزَّيْغِ بَعْدَ الِاسْتِقَامَةِ، وَالضَّلَالِ بَعْدَ الْهُدَىٰ حَاضِرٌ فِي صُدُورِ الرَّاسِخِينَ فِي الْعِلْمِ أُولِي الْأَلْبَابِ. قَالَ الْإِمَامُ ابْنُ بَطَّةَ الْعُكْبَرِيُّ رَحِمَهُ اللهُ فِي كِتَابِهِ «الْإِبَانَةِ الْكُبْرَىٰ»: اعْلَمُوا رَحِمَنَا اللهُ وَإِيَّاكُمْ أَنَّ مِنْ شَأْنِ الْمُؤْمِنِينَ وَصِفَاتِهِمْ: وُجُودَ الْإِيمَانِ فِيهِمْ، وَدَوَامَ الْإِشْفَاقِ عَلَىٰ إِيمَانِهِمْ، وَشِدَّةَ الْحَذَرِ عَلَىٰ أَدْيَانِهِمْ، فَقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ مِنْ خَوْفِ السَّلْبِ، قَدْ أَحَاطَ بِهِمُ الْوَجَلُ، لَا يَدْرُونَ مَا اللهُ صَانِعٌ بِهِمْ فِي بَقِيَّةِ أَعْمَارِهِمْ، حَذِرِينَ مِنَ التَّزْكِيَةِ، مُتَّبِعِينَ لِمَا أَمَرَهُمْ بِهِ مَوْلَاهُمُ الْكَرِيمُ حِينَ يَقُولُ: ﴿فَلَا تُزَكُّوا أَنْفُسَكُمْ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اتَّقَىٰ﴾، خَائِفِينَ مِنْ حُلُولِ مَكْرِ اللهِ بِهِمْ فِي سُوءِ الْخَاتِمَةِ، لَا يَدْرُونَ عَلَىٰ مَا يُصْبِحُونَ وَيُمْسُونَ.

عِبَادَ اللهِ: وَمِنْ أَجْلِ أَنْ يَحْذَرَ الْعَبْدُ مِنْ هَذِهِ الِانْتِكَاسَاتِ وَالتَّقَلُّبَاتِ فَعَلَيْهِ بِمُرَاقَبَةِ رَبِّهِ فِي السِّرِّ وَالْعَلَنِ، وَالظَّاهِرِ وَالْبَاطِنِ، وَحِفْظِ وَقْتِهِ، وَلِسَانِهِ، وَالْجِدِّ فِي عَمَلِهِ، وَالْبُعْدِ عَنِ الْغُلُوِّ وَالْجَفَاءِ، وَلْيَحْذَرِ الْهَوَىٰ، وَالْعُجْبَ، وَالرِّيَاءَ. قَالَ الْعَلَّامَةُ ابْنُ الْقَيِّمِ رَحِمَهُ اللهُ فِي كِتَابِهِ «الدَّاءِ وَالدَّوَاءِ»: الطَّاعَةُ تُوجِبُ الْقُرْبَ مِنَ الرَّبِّ، وَكُلَّمَا اشْتَدَّ الْقُرْبُ قَوِيَ الْأُنْسُ، وَالْمَعْصِيَةُ تُوجِبُ الْبُعْدَ مِنَ الرَّبِّ، وَكُلَّمَا ازْدَادَ الْبُعْدُ قَوِيَتِ الْوَحْشَةُ.

أَيُّهَا الْمُسْلِمُونَ: لَا صَلَاحَ إِلَّا بِالثَّبَاتِ، وَلَا نَجَاةَ إِلَّا بِالْإِخْلَاصِ، وَالْقَلْبُ أَحَقُّ مَا حُرِسَ، وَالْجَوَارِحُ أَكْرَمُ مَا حُمِيَ. وَمَا صَدَقَ صَادِقٌ فَرُدَّ، وَلَا طَرَقَ الْبَابَ مُخْلِصٌ فَصُدَّ. وَاللهُ كَافٍ عَبْدَهُ، وَكُلَّمَا زَادَتْ طَاعَةُ الْعَبْدِ ازْدَادَتْ كِفَايَةُ اللهِ لَهُ. فَلْيَلْجَأِ الْعَبْدُ إِلَىٰ حَرَمِ الْإِنَابَةِ، وَلْيَطْرُقْ فِي الْأَسْحَارِ بَابَ الْإِجَابَةِ، وَمَنْ صَدَقَ فِي تَوْبَتِهِ نَدِمَ قَلْبُهُ، وَأَقْلَعَ عَنْ ذَنْبِهِ، وَعَزَمَ عَلَىٰ عَدَمِ الْعَوْدَةِ، وَأَتْبَعَ السَّيِّئَةَ الْحَسَنَةَ.

عِبَادَ اللهِ: مَا قَسَا قَلْبُ الْعَبْدِ إِلَّا بِذُنُوبِهِ، وَمُحَقَّرَاتُ الذُّنُوبِ مَتَىٰ يُؤْخَذْ بِهَا صَاحِبُهَا تُهْلِكْهُ، وَمِنْ أَخْطَرِ مَسَالِكِ الْمَهَالِكِ ذُنُوبُ الْخَلَوَاتِ، وَقَدْ كَثُرَتْ وَسَائِلُهَا، وَلَا يَزْجُرُ عَنْ إِثْمِهَا وَاقْتِرَافِهَا إِلَّا خَوْفُ اللهِ وَمُرَاقَبَتُهُ. فَذُنُوبُ الْخَلَوَاتِ سَبَبُ الِانْتِكَاسَاتِ، وَعِبَادَةُ الْخَلَوَاتِ سَبَبُ الثَّبَاتِ، وَكُلَّمَا طَيَّبَ الْعَبْدُ خَلْوَتَهُ بَيْنَهُ وَبَيْنَ رَبِّهِ طَيَّبَ اللهُ خَلْوَتَهُ فِي قَبْرِهِ. فَلْيَأْخُذِ الْعَبْدُ حِذْرَهُ مِنْ ذُنُوبِ الْخَلَوَاتِ مَعَ أَدْوَاتِ الِاتِّصَالَاتِ، وَعِبَادَةُ السِّرِّ تَقِي مِنْ نَوَازِعِ الشَّهَوَاتِ، وَالْمُرَاقَبَةُ فِي الْخَلَوَاتِ تُرَسِّخُ قَدَمَ الثَّبَاتِ، وَمَنْ أَكْثَرَ الْعِبَادَةَ فِي الْخَلَوَاتِ ثَبَّتَهُ اللهُ عِنْدَ الشَّدَائِدِ وَالْمُدْلَهِمَّاتِ، وَمَنْ خَافَ أَدْلَجَ، وَمَنْ أَدْلَجَ بَلَغَ الْمَنْزِلَ. قَالَ أَبُو الْفَرَجِ ابْنُ الْجَوْزِيِّ رَحِمَهُ اللهُ فِي «صَيْدِ الْخَاطِرِ»:

وَالْحَذَرَ الْحَذَرَ مِنَ الذُّنُوبِ، خُصُوصًا ذُنُوبَ الْخَلَوَاتِ، فَإِنَّ الْمُبَارَزَةَ لِلَّهِ تَعَالَىٰ تُسْقِطُ الْعَبْدَ مِنْ عَيْنِهِ، وَأَصْلِحْ مَا بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ فِي السِّرِّ، وَقَدْ أَصْلَحَ لَكَ أَحْوَالَ الْعَلَانِيَةِ، وَلَا تَغْتَرَّ بِسِتْرِهِ - أَيُّهَا الْعَاصِي - فَرُبَّمَا يَجْذِبُ مِنْ عَوْرَتِكَ، وَلَا بِحِلْمِهِ فَرُبَّمَا بَغَتَ الْعِقَابَ.

أَيُّهَا الْمُسْلِمُونَ: لِعِلَاجِ ذُنُوبِ الْخَلَوَاتِ أَسْبَابٌ، مِنْهَا:

الْأَوَّلُ: مُرَاقَبَةُ اللهِ فِي السِّرِّ وَالْعَلَنِ، أَخْرَجَ أَحْمَدُ، وَحَسَّنَهُ الْعَلَّامَةُ الْأَلْبَانِيُّ رَحِمَهُ اللهُ، عَنْ أَبِي ذَرٍّ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: «أُوصِيكَ بِتَقْوَىٰ اللهِ فِي سِرِّ أَمْرِكَ وَعَلَانِيَتِهِ».

الثَّانِي: لَا تَجْلِسْ وَحْدَكَ، فَبَعْضُ الْمَعَاصِي تُسْتَثَارُ بِالْخَلْوَةِ، يَخْتَلِي الْإِنْسَانُ فَيَقْوَىٰ سُلْطَانُ الشَّيْطَانِ عَلَيْهِ، فَتَتَحَرَّكُ شَهْوَتَهُ لِارْتِكَابِ الْمَعْصِيَةِ.

الثَّالِثُ: الِالْتِجَاءُ إِلَىٰ اللهِ تَعَالَىٰ بِالدُّعَاءِ وَالتَّضَرُّعِ إِلَيْهِ، أَنْ يَصْرِفَ عَنْكَ الذُّنُوبَ وَالْمَعَاصِيَ.

الرَّابِعُ: مُجَاهَدَةُ النَّفْسِ، وَدَفْعُ وَسْوَسَتِهَا، وَمُحَاوَلَةُ تَزْكِيَتِهَا بِطَاعَةِ اللهِ تَعَالَىٰ.

الْخَامِسُ: تَأَمُّلُ الْوَعِيدِ الشَّدِيدِ الْوَارِدِ فِي ذُنُوبِ الْخَلَوَاتِ، أَخْرَجَ ابْنُ مَاجَهْ، وَصَحَّحَهُ الْعَلَّامَةُ الْأَلْبَانِيُّ رَحِمَهُ اللهُ، عَنْ ثَوْبَانَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «لَأَعْلَمَنَّ أَقْوَامًا مِنْ أُمَّتِي يَأْتُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ بِحَسَنَاتٍ أَمْثَالِ جِبَالِ تِهَامَةَ بِيضًا، فَيَجْعَلُهَا اللهُ عَزَّ وَجَلَّ هَبَاءً مَنْثُورًا» ، قَالَ ثَوْبَانُ: يَا رَسُولَ اللهِ، صِفْهُمْ لَنَا، جَلِّهِمْ لَنَا؛ أَنْ لَا نَكُونَ مِنْهُمْ، وَنَحْنُ لَا نَعْلَمُ، قَالَ: «أَمَا إِنَّهُمْ إِخْوَانُكُمْ، وَمِنْ جِلْدَتِكُمْ، وَيَأْخُذُونَ مِنَ اللَّيْلِ كَمَا تَأْخُذُونَ، وَلَكِنَّهُمْ أَقْوَامٌ إِذَا خَلَوْا بِمَحَارِمِ اللهِ انْتَهَكُوهَا».

السَّادِسُ: اسْتِشْعَارُ تَعْظِيمِ اللهِ وَمُرَاقَبَتُهُ، وَأَنَّهُ رَقِيبٌ، وَمُطَّلِعٌ عَلَىٰ الْمُسْلِمِ فِي كُلِّ حَالٍ. أَخْرَجَ الْقُشَيْرِيُّ فِي «الرِّسَالَةِ الْقُشَيْرِيَّةِ» عَنِ الْإِمَامِ عَبْدِ اللهِ بْنِ الْمُبَارَكِ رَحِمَهُ اللهُ قَالَ: الَّذِي يُهَيِّجُ الْخَوْفَ حَتَّىٰ يَسْكُنَ فِي الْقَلْبِ دَوَامُ الْمُرَاقَبَةِ فِي السِّرِّ وَالْعَلَانِيَةِ.